الفصل الثامن

«خذوا حذركم شعب قادم من الشمال»

هكذا قال الرب هوذا شعب قادم من أرض الشمال وأمة عظيمة من أقاصي الأرض. تمسك القوس والرمح، هي قاسية لا ترحم صوتها كالبحر يعج وعلى خيل تركب مصطفة كانسان لمحاربتك

إرميا 6/ 22 ـ 23

بينما كان بلدوين منهمكاً عند سهل الفرات كان الجيش الرئيسي قد قام برحلة شاقة بطيئة نحو الجنوب عبر جبال الأمانوس في شمال سورية ليصل إلى أسوار أنطاكية في 21 تشرين الأول 1097، استغرقت مدة أربعة أشهر ليشق الجيش عبر هضبة الأناضول مَن نيقية، كما فقد بعض أعداده خلال الطريق بسبب المرض والقتال، ولكنه وصل في حالة معنويات عالية مليئة بالأمل والثقة التامة، وأوقع منظر المدينة في نفوسهم الروع، وبصرف النظر عن لمحتهم الوجيزة عن مدينة القسطنطينية، لم ير أحد منهم مدينة أنطاكية حيث أسسها أحد الجنرالات الاسكندر واسمه سلوقس في سنة 300 ق.م. واتخذ اسم والده أنتيوخس لتسميتها، ولفترة قرون تنافست المدينة مع الاسكندرية وكانتا كلتاهما تدعيان بأنهما المدينة الثانية في العالم الروماني، وقد تفوقت في نقطة واحدة على الأقل على منافستها، فقد كانت أنطاكية المدينة الأولى في العالم تضاء بمصابيح الشوارع ليلاً، وبالنسبة للمسيحيين كانت مدينة هامة حيث نال المسيحيون اسمهم «مسيحيون» فيها لأول مرة، ورغم الزلزال والحروب التي قلصت مجدها السابق إلى حد كانت ما تزال إحدى المدن الكبرى في العالم وأقواها بشكل كبير.

وتقع المدينة على مسافة 12 ميل عن البحر، فوق ضفاف نهر العاصي، وتغطي منطقة تتراوح أبعادها بين ثلاثة أميال طولاً وميلاً واحداً عرضاً بين النهر والريف الجبلي الوعر من سورية حيث بني حي جنوبي على أكتاف تلة جبل القسيان، وكان الامبراطور جستنيان قد أحاطها بأسوار عالية في القرن السادس، كما أصلحها البيزنطيون وطوروها في السنين الأخيرة، وكان ذلك المكان حصيناً بوجود النهر عند جانبها والأسوار المدعمة الشاهقة على نحو فخم حتى جبل القسيان، وحتى القلعة المنتصبة بشكل جليل على ارتفاع ألف قدم فوق السهل عند جانبها الآخر، وقد صممت بنفس الدرجة لمقاومة أي حصار لكونها كبيرة جداً، كما لم تكن قليلة المياه حيث تنحدر الجداول أسفل أطراف جبل القسيان ورغم جفافها في الصيف، إلا أن الرعود عند قمة التلة كانت غالباً تأتي بفيضانات مفاجئة تعيد ملء خزانات المدينة وتهدد بالخطر أرواح حيوانات في مجرى الجداول، وقد سمي أحدها قاتل الحمير، لكثرة البهائم التي ماتت في بعض الأوقات من جراء الفيضانات المفاجئة، ونادراً ما كانت المؤن تنقص لدى حصاره ما بسبب الكميات الضخمة الممكن تخزينها في المدينة، فقد كانت هناك وفرة من الحدائق والبساتين والحقول ضمن أسوار المدينة، تمدها بكل ما يلزم.

وباستثناء ريموند أوف تولوز الذي قام في الهجوم على المكان على الفور، وقف قادة الحملة الصليبية على الجانب بانتظار الإمدادات، ذلك أن تانكرد لم ينضم إليهم بعد، كان ثمة احتمال أن يرسل الامبراطور ألكسيوس بعض المهندسين مع أسلحة الحصار عند الطلب منه، كما كانت هناك إشاعات عن قدوم أسطول من جنوا في طريقه إلى هناك، وكانت التحصينات في المدينة قوية بشكل هائل إلى درجة بدا أنه من الجنون المغامرة بأرواح الصليبيين في مهمة يائسة للاستيلاء على المكان، بالقيام بالانقضاض عليها قبل أن يجري سبر بقية الإمكانيات الأخرى، ووافق على تلك النتيجة جميع الأمراء والأفراد بكل إرتياح، وبدلاً من الاندفاع لمهاجمة الأسوار قرروا القيام بمهمة ممتعة

لسلب ونهب ضواحي المدينة، وسرقة البيوت والقصور الريفية المترفة الكثيرة التي كانت تقع خارج المدينة، وكان الطعام وافراً فاستولوا على الدواجن والخنازير والماشية والغنم، وحتى الخمور الموجودة في الأقبية، كما استولوا على الحدائق والبساتين والكروم التي كانت لا تزال تزخر بفاكهة الصيف والخريف، وبعد أربعة أشهر من التقشف والجوع حتى كادت المجاعة تأتي عليهم، أصبحت فكرة الإنغماس في الطعام والشراب شيئاً مرحباً به كثيراً.

وكان الجيش لا يزال مع أتباعه يزيد على مائة ألف مقاتل، ولم يمض وقت طويل حتى جردوا بسرعة كل الريف مما كان يحويه، ولذلك عندما بدأت الموارد بالنفاذ اضطر الصليبيون أن ينهبوا أكثر فأكثر من الحقول، وأعطى ذلك الأتراك فرصاً لنهب المدينة ليلاً ونصب الكمائن لمجموعات من الصليبيين والمتشردين الذين كانوا يذبحون، ولذا كان وصول الجنوبيين واستيلاؤهم على ميناء السويدية الصغير أمراً باعثاً على الغبطة، لأنه أتى بقوة جديدة إلى الجيش، وبسبب إمكانية استخدام السفن لجلب المؤن إلى الميناء، لكن حتى وصول تلك السفن كانت نتيجة قدوم الإيطاليين خلق مشكلة أشد حدة لتغذية ذلك الجيش، ولذلك تقرر في عيد الميلاد إرسال بوهموند وروبرت أوف فلاندرز مع عشرين ألف رجل في حملة إغارة كبيرة لسلب المؤن، في حين تخلف باقي الجيش تحت قيادة ريموند وأسقف لي بوي لمحاصرة المدينة، وسرعات ما وصلت الأنباء إلى الوالي التركي في أنطاكية وكان يدعى يغي سفان الذي قام بشن هجوم ليلي على بعض رجال ريموند حيث كانوا يخيمون شمال نهر العاصي وقد فوجئوا بالهجوم، وكلن ما أن سمع ريموند بالهجوم التركي حتى سارع على نحو مثالي، وجمع عصابة من فرسانه حوله دون الانتظار لتجهيز قوة كبيرة، وهاجم الأتراك تحت جناح الليل على نحو مفاجئ وسلب ونهب ما لديهم، وعندما طاردهم عبر النهر إلى داخل المدينة كاد ينجح في فتح البوابة خلفهم، غير أن حصاناً ضالاً أوقع الارباك في جماعة صغيرة من فرسانه، وبذلك ضاعت الفرصة، وكانت مجابهة دموية صغيرة، في حين

قتل العديد من الطرفين بما فيهم بعض فرسان (ريموند) الذين تعذر على الصليبيين تعويضهم.

وبينما كان القتال يجري عند أسوار انطاكية اصطدم يوهمند وروبرت وفرقتهما المغيرة دون سابق قصد بعساكر جيش مسلم كبير، كان قد تجمع لتخليص أنطاكية وقدم من دمشق وزحف شمالاً حتى وادي نهر العاصي والتقوا في اليوم الأخير من سنة 1097، وفوجيء رجال روبرت الذين كانوا في مقدمة مجموعة يوهموند على حين غرة تماماً، وحوصروا قبل التحقق من قرب العدو منهم، وقاتلوا بشجاعتهم وضراوتهم المعتادة، وكانوا سيهزمون هزيمة منكرة لولا أن ظهر بوهمند فشن هجوماً على المسلمين لحظة ظنوا أنهم قد انتصروا في القتال، ودمر الانقضاض المفاجيء الرجال القادمين من جهة دمشق، بحيث اضطروا للانتكاص على أعقابهم للنجاة بأرواحهم، وهكذا كان النصر في جانب الصليبيين الذين كانت خسائرهم كثيرة أيضاً، مما اضطرهم للتخلي عن القيام بحملتهم المغيرة من أجل المؤن، وعادوا إلى أنطاكية دون الأتيان بأية غنائم كان الجيش في حاجة ماسة إليها.

وفي نفس الوقت وقع زلزال في نفس الليلة تبعه منظر للشفق الشمالي، وخاف الصليبيون ورعبوا ونظراً إلى أن ثبات الأرض وظلمة الليل كانتا جزئين من أمور ربانية، فقد خلصوا إلى نتيجة معقولة أن أية عقبة في اتجاههم لا بد كانت بسبب بعض الغضب الشديد من جانب الرب، الذي كان بوضوح غاضباً، وقد أرسل تلك الاشارات عن غضبه، ليحذرهم من الخطر الذي هم فيه، وكانت تلك النتيجة التي دعمها هطول المطر، وليس من أحد غير الرب الغاضب يمكنه أن يرسل مثل هذا الطقس عليهم، وبعد الزلزال والليلة المرعبة حيث أبعدت موجة الغضب الإلهي الظلام الطبيعي، انفتحت السماء وصبت أمطاراً لم تسقط من عهد نوح، حينما أبيد جميع الجنس البشري، لأن الأرض امتلأت بالعنف، وأعلن أسقف لي بوي الصيام، على أمل أن يتحول غضب الرب بعيداً عنهم، ولما لم يكن ثمة طعام في المعسكر او الريف المجاور،

فقد أدي ذلك إلى تحشد الصليبيين الجائعين مع بعضهم من أجل الدفء تحت أي وقاء وجدوه، فقد أصبح كل شخص وكل شيء مبللاً وصلباً، وتحول المعسكر نفسه إلى سبخة يتحركون فيها بصعوبة من كثرة الوحول التي ترشحت في أغطيتهم التي حاولوا النوم تحتها، كما لم تعد خيامهم ترد المياه، وغطت الأتربة دورهم وانحلت أوتار قسيهم وأصبحت رخوة، أما جلود عدتهم الحربية فأصبحت طرية، وكتب ستيفن أوف بليوس إلى زوجته أديلا يقول لها إنه من الخطأ التصور أن الشمس مشرقة دوماً في سورية لأننا «خلال هذا الشتاء تحملنا برداً قارساً، أمطاراً متواصلة.»

وأضاف إخفاق الفرقة المغيرة التي قادها بوهموند وروبرت مجاعة مهلكة إلى نكبات الصليبيين الأخرى، على حين جلب القرويون المسيحيون من الطعام ما استطاعوا أن يوفروه، كما فعل ذلك الناسكون في تلال سورية، واستطاع أغنياؤهم فقط أن يوفروا طعامهم، حيث لم يكن القرويون أو الناسكون محسنين بل على النقيض كانو يعرفون أسواق الباعة عندما يرون أحدها، وكانت ترسل فرق مغيرة بعيداً في الحقول طلباً للطعام، ورغم أنهم تمكنوا من إحراز بعض النجاح، إلا أن ذلك لم يمنع خيولهم ورجالهم من الموت، ومع مضي الوقت بدأ الطعام يقدم من قبرص، ولكنه بقي غير كاف لإشباع جوع جيش كبير، وظل الناس يموتون، وكانت أضمن طريقة لضمان بقائهم أحياء تبناها بعض أبناء الفلمنكية (بلجيكا) شبه المتمدنين وقد عرفوا بالمعدمين وهم من رحل شرقاً مع بطرس الناسك فقد قاموا بجمع بعض جثث الأتراك الموتى وأكلوها، وعندما بدأت جثث الأتراك بالنفاذ شرعوا باصطياد أتراك أحياء ووضعوهم في قدورهم لطبخهم.

وفي نهاية شهر كانون الثاني 1098 ساءت الأمور إلى درجة كبيرة، وبدأ الرجال بالفرار، وكان أول من قام بذلك بطرس الناسك لكنه لم يترك ليذهب بعيداً، بل أعيد معتقلاً، فاختفى أثره الذي كان له سابقاً، وبعد فترة قليلة أعلن ضابط بيزنطي ممثلاً للامبراطور في الحملة الصليبية، أنه ينوي المغادرة،

وكانت دوافعه نبيلة، ومع ذلك اعتبر رحيله فراراً، وتعمقت شكوك الصليبيين بالاغريق، وبدأت المساوئ بالظهور فقد كان بوهمند الشخص التالي الذي بدأ بالتكلم عن العودة إلى الوطن، ومن المؤكد أنه لم يكن لديه أدنى نية في عمل ذلك، ولكن إعلانه أحدث شيئاً يشبه الفزع في الجيش، وما من شك في أنه قصد أن يحدث ذلك، وعلى الفور سارع الجميع إلى رجائه أن يعدل عن فكرته، ووافق بلطف على ذلك، وعلى إفهام أنه عندما يتم الاستيلاء على أنطاكية، فإن السيادة على المدينة ستكون له، ولكن بعض الصليبيين القياديين الآخرين لم ينخدعوا بتلك التمثيلية، غير أن القليلين دعوه إلى تنفيذ وعده بسبب وصول أنباء في ذلك الوقت عن زحف جيش تركي كبير لتحرير أنطاكية.

كان الأتراك يتقدمون من جهة حلب، ووضعت الأخبار الصليبيين في وضع حرج، ذلك أنهم لو خرجوا لملاقاتهم في قوة تاركين أنطاكية خلفهم غير محروسة فإن حامية يغي سغان المحاصرة ستكون حرة للقيام بهجمة لتدمير معسكرهم، في حين لو تخلوا عن عدد كاف من رجالهم لحصار الأتراك في المدينة، فلن يكونوا أقوياء بما فيه الكفاية لدحر القادمين من حلب، وعقد مؤتمر، وتقرر حسب اقتراح بوهمند ترك المشاة لحصار المدينة على حين يخرج الفرسان وحدهم لملاقاة العدو المتقدم، ورغم ذلك فلم يكن هناك أكثر من سبعمائة فقط من المناسبين للخدمة، فإذا استطاعوا مفاجأة خصومهم فإنهم سينالون فرصة النجاح، وقد كانت خطة جريئة على نحو مدهش، وقد كادت أن تخفق. فقد خرج الفرسان من المعسكر تحت جناح الليل، والتقوا عند الفجر مع الأتراك المتقدمين، وشنوا هجوماً قبل أن يفسحوا المجال لرماة الأسهم ليتحركوا إلى الجاهزية القتالية، ولكن العدو كان كبيراً إلى درجة أن هجوم الصليبيين لم يحطمه، واضطر بوهمند إلى التراجع، وربما كان ذلك مسبباً لكارثة، ولكنه اختار أرضه بحذر، وكأن فكرة عن هزيمة محتملة كانت لديه، وجعل يغوي الأتراك المبتهجين المنتصرين باللحاق به لدى انسحابه حتى قادهم إلى أرض ضيقة بين نهر العاصي وبحيرة ماء، بحيث أصبح جناحاه

اليميني واليساري محميين، ولم يستطع الأتراك الالتفاف حوله. بل التف بوهمند حول مطارديه، وعاد الفرسان مرة أخرى للهجوم عليهم، وكانت النتيجة هائلة، لأنه رغم أنهم كانوا متفوقين كثيراً على جبهة ضيقة، لكن نفوذهم ضعف وزاد انحلالهم، وانتشرت في الأتراك الفوضى التامة، وفي خلال دقائق كانوا قد فروا يتعقبهم مطاردوهم ويقتلونهم حيثما اتجهوا، ولم يسمح بوهمند لرفاقه بمطاردتهم بعيداً فقد كان قلقاً عل الجيش الموجود عند أسوار أنطاكية، وكان وصولهم لدى دخولهم المعسكر مبتهجين بنصرهم المثير ـ مناسباً جداً لمساعدة قوة المشاة التي كانت تحت تأثير هجوم رجال يغي سغان الذي قام بهجمة قوية من المدينة، وقد كان الأتراك يقومون بالضغط على المعسكر، غير أنهم لدى رؤيتهم الفرسان المقتربين عادوا وانسحبوا إلى داخل المدينة بأقصى سرعة.

وكان هزيمة الجيش القادم من حلب دليلاً آخر على أن الصليبيين كانوا مقاتلين أشداء، وكان احتياطهم من الشجاعة الثابتة مؤثراً وعسير الفهم على نحو ظاهر، وفي الواقع كان الأتراك غير قادرين أن يسيطروا على إعجابهم من شجاعتهم غير العادية، ولكن نصرهم لم يهدئ صعوبة وضعهم السيء، حيث لا زالت المجاعة تتفشى في معسكرهم، وأخيراً ومع بداية شهر آذار بدأت كميات كبيرة من الطعام تصل من قبرص، حيث دخل أسطول انكليزي إلى ميناء السويدية مع شحنة من مواد الحصار ومهندسين بيزنطيين أرسلهم الامبراطور ألكسيوس لمساعدتهم، وحاول الأتراك ما في وسعهم ليحولوا دون الوصول تلك المؤن إلى الرجال الجائعين عند أسوار أنطاكية، وقامت معركة حاسمة على الطريق إلى الساحل، وبعد النكسة الأولية كانت النتيجة أن هزم الصليبيون خصومهم مرة أخرى بشكل كامل، وقيل إنهم قتلوا ما يزيد عن خمسمائة من الأتراك، بينهم تسعة أمراء وربما كانت تلك مبالغة، وعند المساء كان الصليبيون يتركون الأتراك ليخرجوا من المدينة ليدفنوا موتاهم، ولكن هذه النوبة المفاجئة من الشفقة لم تدم طويلاً، ففي صباح اليوم التالي خرجوا إليهم مرة أخرى وسرقوا كل ثمين وجدوه فوق الجثث.

وانقطعت أنطاكية عندئذ عن العالم الخارجي، ولأول مرة بدأ سكانها يعانون من الجوع، ومع قدوم الربيع ازدادت المؤن القادمة من قبرص إلى الصليبيين الذين كانوا أفضل حالا من الأنطاكيين، ورغم أن البيزنطيين جلبوا معهم أسلحة الحصار، غير أن احتمال الاستيلاء على المدينة بالقيام بالانقضاض عليها بدا بعيداً أكثر من قبل، وفي حالة صفاء فكري كاف تحقق بوهمند أنه إذا أريد الاستيلاء على المدينة فلابد من اتخاذ اجراءات أخرى لحصرها، فقام بالاتصال مع الأعضاء القياديين من هيئة يغي سغان، وهو أرمني متحول إلى الإسلام، واسمه فيروز، وكان حاقداً على سيده التركي، وبسرية شديدة حاول إقناع الأرمني بخيانة المدينة، ووعده بوهمند بمبلغ من المال لقاء ذلك العمل، وسرعان ما بدأت الأخبار عن قدوم كربوغا الضاري مع جيش تركي ضخم، ونقلت الأنباء عن قوته بحيث بدأت نوبة من الهلع تسري بين صفوف الصليبيين، وخلال شهر أيار حاول المرتحلون في مجموعات تتراوح بين عشرة إلى مئة فرد ـ الوصول إلى الساحل بأمان. وفي أوائل شهر حزيران تقدم ستيفن أوف بليوس ورجاله الفرنسيون الشماليون ـ إلى الاسكندرونة التي كانت تحت قبضة الصليبيين، ورأى هذا ألا جدوى من الانتظار ليذبح الصليبيون من قبل أتابك الموصل، وأنه من الأفضل إنقاذ أرواحهم بدلاً من اقحامهم في غير ما غاية واضحة.

وفي نفس يوم رحيل ستيفن الذي وبخته زوجته أديلا الرهيبة من أجله على نحو مرير، تلقى بوهمند رسالة من فيروز تعلمه بموافقته على تسليم المدينة إليه في تلك الليلة، وكان الأرمني قد اكتشف أن زوجته قد وقعت فريسة غواية أحد الأتراك الكبار، مما أدى إلى جعله حانقاً ومغتاظاً ضدهم، فقرر عدم التردد وأرسل رسوله إلى بوهمند بأنه إذا طوق رجاله سور المدينة عند مكان معروف ببرج الأختين، فإنه سيدعهم للدخول. وعلى الفور دعا بوهمند جمع القادة الصليبيين إلى مؤتمر وشرح لهم خطته: في تلك تحت أعين الأتراك سيقود الجيش يتفاخر خارج معسكر نحو الشرق، كما لو أنه زاحف إلى ملاقاة

كربوغا، وحالما يهبط الظلام يعود ويلتف على أعقابه متبعاً آثاره السابقة، ويجمع رجاله بصمت شديد تحت أسوار أنطاكية عند بقعة اختيرت من قبل الخائن فيروز، واستمع الآخرون إليه، وعندما انتهى من الكلام وافقه الجميع وأيدوه حتى أن ريموند أوف تولوز لم يعارضه رغم كراهيته له وحسده المميت.

ونفذت الخطة بشكل جيد، وكان الوقت فجراً تقريباً عندما وصل الجيش أسف برج الأختين، حيث كان الرجال يتحركون خلسة خلال الأرض الصخرية حاملين دروعهم، ونصبت السلالم على البرج قرب نافذة مفتوحة، وأحاط به ستون فارساً يتقدمون الواحد خلف الآخر، يقودهم رجل يدعى فولك أوف تشارتر (نظنه المؤرخ، ليس فولشير الذي جاء من المدينة نفسها). أما فيروز الذي كان في حالة اهتياج أقصى ـ فقد قابلهم على حين لم يعيروه انتباهاً بل انطلقوا عبر أعلى السور، وتمكنوا من الاستيلاء على برجين آخرين قبل أن يعلن النفير، ثم وضعت السلالم على الأبراج الثلاثة عند الأجزاء التي استولى عليها الفرسان، وبينما كان يحتشد أكثر وأكثر من الصليبيين عند أعلى السور، كان بعض الفرسان ينزلون إلى داخل المدينة ثم فتحوا إحدى البوابات للجيش المنتظر خارجاً، ولم يكن هناك شيء يوقف الصليبيين عند التدفق إلى داخل المكان، حيث حياهم بصخب شديد المواطنون اليونانيون والأرمن الذين كانوا مشمئزين من سيطرة المسلمين، كما كانوا فرحين للانضمام إلى المجزرة التي تلت ذلك، وكانت بربرية ووحشية إلى حد بعيد لم يترك منها أحد حياً، حيث جرى ذبح النساء والأطفال إلى جانب رجالها، كما كان الخطأ من نصيب عدد من اليونانيين والأرمن[1]، وحاول يغي سغان الفرار مع بعض حرسه من الفرسان، ولكنه يم يبتعد كثيراً حيث سقط عن حصانه فوق درب جبلي خارج المدينة، حيث وجده أرمني، قتله في الحال وقطع رأسه وجاء به

(1) لم يرحب بالصليبيين أحد، وقد ذبحوا لدى دخولهم أنطاكية جميع من كان فيها بلا تميز.

إلى بوهمند الذي دفع له مالاً بسخاء لقاء هديته الشيقة، وحتى منتصف النهار لم يبق تركي واحد حياً في المدينة، عدا بعض من التجأوا إلى القلعة، وصمدوا ضد جميع محاولات الإحاطة بدفاعاتها الهائلة. أما الشوارع فقد افترشت بالجثث في كل مكان إلى درجة أنه كان من الصعوبة ألا يتعثر المرء بها، وبدأ الهواء يعبق بروائح كريهة من الدماء واللحم المتفسخ، وعندها ازدادت حرارة الجو. غير أن أنطاكية أصبحت للمسيح مرة أخرى عن طريق[1] الأفرنج.

ولكن وضعهم مع ذلك بقي متقلقلاً إلى حد كبير، ذلك أنهم ما كادوا يحتلون المدينة حتى وصل كربوغا وجيشه، وفرض حصاراً حولها، ومع بقاء القلعة في أيدي الأتراك الذين التجأوا إليها، ازداد خطر إمكانية سقوط المدينة في أيدي القادمين الجدد، ورغم شنهم هجوماً على دفاعات المدينة التي كادوا أن يخترقوها، غير أنهم أبعدوا أخيراً بعد تكبيدهم خسائر جسيمة من قبل رجال هيو أوف فيرماندويوس الفلمنكيين، ورجال روبرت النورمانديين، وبعد أيام شن الصليبيون هجوماً عنيفاً مماثلاً على الأتراك، ولما لم يحققوا أي نصر فقد ردوا إلى داخل المدينة، وأوقع إخفاقهم الحزن في نفوسهم وتسرب القنوط إليها كثيراً، فإنهم إن كانوا في الماضي جاعوا فقد جاعوا في هذا الوقت جوعاً أشد وأقسى، ذلك أن رغيفاً صغيراً ـ إن وجد ـ كان يكلف غالياً إلى درجة أن القليل منهم تمكن أن يشتريه، وبحيث اقتصر الصليبيون الفقراء على مضغ الحشائش، وأوراق الشجر، لقد واجهوا الجوع والاستسلام، وكان أملهم الوحيد في إمكانية قدوم الامبراطور البيزنطي لمساعدتهم، وعلم فيما بعد أن جيشاً بيزنطياً كبيراً أعاد سيطرته على جزء كبير من منطقة الأناضول في أعقاب التقدم الصليبي، وقد أرسلت رسل عديدة تناشده ان يساعدهم، ولكن ألكسيوس الذي سمع روايات عن عمليات فرار هائلة ضخمة مثل رحيل ستيفن

(1) عن طريق الدم الذي أوصى المسيح بصيانته.

أوف بليوس وحالات الشدة المنفصلة التي أوهنت الباقي قبل سقوط أنطاكية، لم يكن مستعداً لدفع جيشه لركوب المخاطر لانقاذهم، ورغم ذهاب أوف فيرماندوس معرضاً نفسه للمخاطر الهائلة إلى القسطنطنية ليرجوا الامبراطور التدخل، لكنه رفض، لقد أدرك أن قدر إمبراطوريته كلها معتمد على الحفاظ على قواته المسلحة، وإذا أرسل جيشه لمساعدة الصليبيين سيجدهم قد انهزموا تماماً قبل أن يصل إليهم، وعندها سيصبح في خطر حقيقي من الابادة قبل الأتراك، لقد كان قراره حساساً. وعندما سمع الرجال المحاصرون في أنطاكية بذلك ازدادت مرارتهم، ونذروا ألا يثقوا بالبيزنطيين مرة ثانية، وبعد ذلك تبع هيو أوف فيرماندوس زميله ستيفن المتعقل، وانطلق عائداً إلى الوطن.

وفي حين كان رجال أنطاكية في حالة جوع وغضب، وخوف حقيقي للمرة الأولى أن الرب هجرهم حدث ما رفع معنوياتهم فجأة بانبثاق قوة غيبية في ظلام حياتهم اليومية، فبعد فترة أسبوع من الاستيلاء على المدينة سعى شاب أشعث دعي بطرس بارثلميو لمقابلة ريموند أوف تولوز وأسقف لي بوي ليعلن أنه رأى رؤيا عجيبة، ففي ليلة الزلزال فزع كثيراً، فالتجأ إلى كوخ حيث ظهر عليه فجأة رجلان متدثران في عباءتين مضيئتين، فزاد خوفه أكثر، ثم أخبره الرجل الأكبر منهما أنه الرسول القديس أندرو وأنه جاء ليبين لبطرس أين تقع الحربة التي خرقت جانب جسد المسيح خلال صلبه، وعلى الفور انتقل بشكل اعجازي، وهو مرتد قميصاً فقط، إلى كنيسة وكاتدرائية القديس بطرس في أنطاكية التي حولها المسلمون إلى جامع، حيث أرى القديس أندرو الفلاحَ الفزع مكان الحربة المقدسة المدفونة تحت أرض المعبد، وأراد بطرس أن يأخذ الحربة مباشرة، لكنه أخبر أن ينتظر حتى يستولي الصليبيون على أنطاكية، ثم يعود ويبحث عنها. ثم أعاد القديس أندرو وزميله الملائكي بطرس إلى المعسكر واختفيا. ولكن بطرس خاف أن يطيع أوامر القديس المقدسة، وخاف وهو الرجل الفقير من السخرية، ومضى في عمله اليومي المعتاد، فزاره القديس أندرو أكثر من ثلاث مرات ووبخه بقسوة لعدم إطاعته وأمره أن يفعل كما أخبره.

ولكن أدهمر أسقف لي بوي كان متشككاً، فقد كانت القصة مشتتة وغير محتملة، كما أن الرواي لم يكن مثقفاً ومخادعاً وضعيف التأثير، وبحكم كونه رجل كنيسة كان قد تدرب على عدم تصديق رؤى خاصة، اضطر إلى رفض هذه الرؤية باعتبارها نتاج خيال تنشط بسبب الخوف والجوع، لكن ريموند كان أقل نزوعاً إلى الشك، وكذلك سميه وراهبه ريموند أوف أوغلرز فقد صدقا باخلاص كل كلمة في قصة بطرس، وانتشرت القصة بسرعة، وسرعان ما ظهرت رؤى عند شخص آخر: لقد ظهر المسيح ترافقه أمه مريم والقديس بطرس، لكاهن فرنسي دعي ستيفن، بينما كان يصلي في ليلة كنيسة سيدتنا، فإذا أقلع الصليبيون، كما أخبر ستيفن، عن أساليبهم في العهر وعن الشراب، فإنهم سينعمون بالرعاية مرة أخرى، وتنتهي جميع المشاكل وكان ستيفن رجل دين محترماً حتى أن أدهمر تأثر به، وكان قد قال: عندما يتوهج نجم كبير فوق المدينة ـ ثم ينقسم ويسقط فوق الأتراك، تنتهي الشكوك، ويبدأ الرب في إظهار عمله، فهو قد فعل أولاً من خلال بطرس بارثلميو ثم من خلال الراهب ستيفن، ثم أخيراً من خلال النيزك العجيب الضخم، وقد حان الوقت لإطاعة أوامره الإلهية.

وانطلق في اليوم التالي بطرس بارثلميو وعدد من الرجال المتخيرين من بينهم الكونت ريموند وراهبه ريموند ـ إلى كاتدرائية القديس بطرس (القسيان) وشرعوا في حفر أرض الكنيسة حيث أرى القديس أندرو بطرس كما زعم المدية، وحفروا لمدة ساعات، ولكن لم يجدوا شيئاً، وعاد ريموند أوف تولوز إلى بيته وهو خائب يشعر بالمرارة، ثم بدأ الجميع يتساءلون عما إذا كانوا قد خدعوا، وفجأة قفز بطرس نفسه، وهو مرتدٍ قميصه الوحيد، كما كان ليلة رؤياه العجيبة إلى داخل الخندق، ودعا الجميع للصلاة كما لم يصلوا من قبل، ثم انحنى أسفلاً وأخرج في غاية من الانتصار شيئاً معدنياً حاداً ورفعه عالياً، وأقسم الراهب ريموند فيما بعد أنه قبّل رأس الشيء ولا يزال مدفوناً بقيته في الأرض. ولكن آخرين من ضمنهم المؤرخ المسلم ابن الأثير ـ اتهموا

بشكل تام بطرس بتلفيق الشيء كله، أو على الأقل بدفنه المدية بنفسه، ولن نعرف ما إذا فعل ذلك أم لا، غير أن الأغلبية الساحقة من الصليبيين كانوا مقتنعين أن المدية المقدسة التي خرقت جانب الرب فوق الجلجلة (موضع صلب المسيح) قد انكشفت بأعجوبة لهم كإشارة من تأييد الرب.

ومع مرور الوقت بدأ الكثير من الناس يشكون في بطرس، فإذا لم تتكرر رحلته الأصلية في عالم التجربة الغيبية، فربما لم يناقشوا مصداقيته، ولكنها ترافقت مع عدد من الرؤى العجيبة المتعاقبة والمريبة كثيراً، فأصبح العديد من الناس ميالين للشك وكان أحدهم ذا قدر عملي وهام، حيث كانت رؤى ظهر فيها القديس أندرو مرة أخرى لبطرس وتنبأ له أنه إذا هاجم الصليبيون الأتراك في فترة خمسة أيام فإنهم سينتصرون، وفي الواقع لم تكن هذه توقعاً غير محتمل كما قد تصور ذلك، لأن الأتراك كانت لهم مشكلات خاصة، كما كان قادتهم منقسمين فيما بينهم على نحو حاد، بالإضافة إلى افتقارهم إلى الطعام، وفوق هذا وذاك، أصبح رجال كربوغا مرهقين من الحصار ومشاكله وكانوا يهربون مبتعدين، وعلى أمل في ذلك أرسلت هيئة ممثلة تحت قيادة بطرس الناسك لإقناع كربوغا بالتخلي عن الحصار، ولكنها أخفقت، وبالإضافة إلى مشكلاته، ولم يرتض كربوغا بانهاء الأزمة بأقل من استسلام المسيحيين غير المشروط، ولما كان ذلك غير مقبول كلية قرر المسيحيون تحت قيادة بوهومند الذي كان في قيادة فردية خلال مرض ريموند أوف تولوز ـ أنه ليس لديهم بديل غير أن يخاطروا بكل شيء للمعركة.

وفي الصباح الباكر من يوم الثامن والعشرين من شهر حزيران، فيما أقام رجال الدين القداس فوق أسوار المدينة، خرج الصليبيون عن طريق بوابة تقود مباشرة إلى جسر مثبت فوق نهر العاصي، وكان معظمهم هزيلين من الجوع، وفي أسمال بالية، لكن معنوياتهم كانت مرتفعة، لأنهم أدركوا أن المدية المقدسة قد أُتي بها لتدخل معهم المعركة، وهي مثبتة باحكام فوق احدى الرايات، وبمثل ذلك الأثر المقدس على رؤوسهم، كانت فكرة الهزيمة

تجديفية وسخيفة، وبعد ذلك خرجت النساء معهم يحملن أكياساً جلدية فيها الماء، كما انساق مع الحشد الأطفال، أما الفرسان فكانوا مرتدين أسمالاً بالية ورثة، أكثر منها عندما خرجوا من أوروبا، وقد أجبر بعضهم على الذهاب إلى القتال سائرين على أقدامهم بعد أن فقدوا خيولهم. بينما ركب آخرون بغالاً وحميراً، أما دروعهم فكانت حمراء اللون من الصدأ، أما راياتهم فبهتت وخبا لونها، ولم تعد تصلح لتحمل، وإذا كانوا قد بدوا أقل رهبة وهولاً مما كانوا في الماضي فإن مظهرهم يعطي فكرة خاطئة عنهم، حيث كانوا خطيرين غير خائفين، كما كانوا في السابق، منظمين في ستة جيوش، كل منها تحت قيادة سيدها، وعندما عبروا الجسر في شكل نهر طويل من البشر على نحو ظاهر، انتشروا ببطء ووضوح عبر السهل ليشكلوا خط هجوم.

أما جيش كربوغا فقد كان أيضاً ضخماً، حيث ضم العديد من أفضل سلاح فرسان في آسيا تحت قيادته، لقد ارتدى الأتراك السلاجقة السوابغ الفارسية والخوذة الفولاذية الدمشقية، ورغم انعدام الود بين العرب والأتراك، قام عدد هائل من الأمراء العرب ومعهم محاربيهم الصحراويين بمساعدة كربوغا ضد عدو الإسلام المشترك، وبالطبع التحق الحكام الأتراك في حلب وحمص ودمشق مع جيوشهم الخاصة بعمائمهم الثقيلة وسيوفهم الحدباء والأقواس القصيرة، وقد قدموا رغم كرههم كربوغا وشك بعضهم بنوايا الآخر، وعارضهم كربوغا إغراء الهجوم على الصليبيين عندما عبروا الجسر لئلا يتدمر بسهولة قسم منهم، بينما يدع الباقين يتقهقرون بأمان إلى داخل المدينة، ولكنه أخطأ، وعندما رأى حشد المسيحيين يتخذون تشكيل الهجوم عليه، أرسل رسولاً متأخراً يعرض عليهم الهدنة إذا أرادوا، ولكن الوقت فات، وتجاهل الصليبيون الرجل ورسالته، وبدأ القتال عند الجناح الأيمن قرب النهر، وكانت أصوات الرجال تهدد عالياً كما كان صليل الفولاذ يسمع في جميع أنحاء أرض المعركة.

وفي ظرف دقيقتين اشتبك الجيشان على طول الجبهة كلها، وصب

الفرسان الأتراك أسهمهم محاولين الالتفات على أعدائهم عند الجناح الأيسر من الصليبيين حيث لا يحميهم نهر العاصي، لكن زحف المسيحيين كان شديداً ولا يمكن إيقافه بحيث بدأت خلخلة الصف التركي، وفي أوج القتال حيث تصعدت كمية الخسائر في الجانبين انتشرت إشاعة خلال صفوف الصليبيين عن سرية من الفرسان فوق خيول بيضاء تحمل ألوية بيضاء ترفرف فوقها، قد شوهدت تقاتل بشراسة على الجناح الأيسر كما أمكن تعيين قوادها على أنهم القديسون المحاربون العظام الثلاثة في العالم المسيحي: القديس جورج والقديس ديمتريوس والقديس ميكيوري وقام رجال مناطق نورماندي وبروفانس وفلاندرز ـ هم في حالة تيه وابتهاج لذلك البرهان الجديد من التأييد الإلهي ـ قاموا بممارسة الضغط الشديد، بشراسة متناهية، وبشجاعة إجرامية، فكان العرب أول من بدأ الانسحاب وهم غير راضين عن موتهم من أجل سادتهم الأتراك، ولم يمر وقت طويل قبل أن قرر أمراء حلب وحمص ودمشق إنقاذ أنفسهم ومن بقي من جيوشهم وترك أتابك الموصل يواجه قدره، حيث كانوا يغارون منه على نحو مفرط لفترة سنين، وعندما بدأ الصف المسلم بالانهيار ورأى أمراء وأفراد الجيش المسيحي اللواء القرمزي العائد للنورمانديين اندفعوا فجأة إلى الأمام على خطى بوهمند وفرسانه، وبدأوا بمطاردة الأتراك متعثرين بأجساد الجرحى، وجثث القتلى، وهم يبكون من الفرحة والطرب، ويصرخون بالثارة بادية، ثم تبع تانكرد وفرسانه بوهومند في سحابة مرعدة من الغبار، وعندما دخلت احتياطات الصليبيين الأخيرة القتال، تراجع الأتراك ولاذوا بالفرار، وهكذا فاز الصليبيون بالمعركة.